كثيرون هم الذين يتبجحون بامتلاكهم الضمير الحي

الضمير، ما لغته؟ وما أسلوب وعيه؟

الضمير.. كلمة تحمل أبعادا كثيرة، وتزخر بمعان متعددة ومشاعر مختلفة تتباين بحسب مفهوم الفرد ومستوى وعيه. فالضمير بالنسبة إلى المزارع يختلف عنه في مفهوم رجل القانون، أو الحاكم، أو رب العمل كما يتفاوت مفهومه بين الرئيس ومرؤوسيه. وبين رجال الفكر والعلم والدين. ولا عجب أن ينظر كل شخص إلى الضمير بعين مفهومه، ويعرفه من منطلق منحاه الفكري والعملي وطبقا لسعة أو استيعاب وعيه.

لكن الهدف الذي يقرب تلك المفاهيم المختلفة بعضها إلى بعض ويجعل بينهما قاسما مشتركا هو راحة الضمير فالكل يبحث عن تلك الراحة ويسعى إلى إراحة ضميره، بغض النظر عما إذا جاءت تلك الراحة بالمسلك الصحيح والأسلوب السليم، أو بوسيلة أخرى علما بأن حتى راحة الضمير يختلف واقعها بين شخص وآخر حسبما يفسر هو الضمير.

ما فتئ الايزوتيريك يردد أن التطبيق العملي هو القسطاس الذي به تقاس أمور كثيرة فإن شئت معرفة مدى إدراك المرء لمعلومة ما أو مدى استيعابه لمفهوم محدد، أو مقدار إيمانه بمبدأ معين، يكفي أن تلاحظ حياته العملية لتكتشف الواقع بنفسك لأن التطبيق العملي هو بمثابة حقل التجارب الذي يميط اللثام عن الحقيقة.

كذلك الأمر في مجال التعرف إلى الضمير فإن أردت معرفة المفهوم الواقعي لشخص ما في الضمير، يكفيك أن تراقب مدى التطبيق العملي الذي يجسد حس الضمير لديه.. فتدرك كل شيء إذ أن في معظم الأحيان اعتاد المرء الاختباء خلف كثافات من الكلام والآراء، ومن المنتظر والمنطق الذاتي والاجتهادات الفكرية، فإذا ما تجاوزت تلك الكثافات، أو اجتزت تلك الأسوار بانت تلك الحقيقة فالحقيقة تكون في أحيانا كثيرة مغايرة للواقع الذي يتظاهر به المرء.

كثيرون هم الذين يتبجحون بامتلاكهم الضمير الحي.. ويحث الناس على العمل بموجب ما يمليه الضمير..

الضمير

تجسيد العدل الإلهي في نفوس البشر

بقلم: جوزيف المجدلاني

اجتمعت محبة الخالق وحكمته في فعل.. فكان كل شيء.. كان المسار وكان الإنسان، كان الوجود وكان القانون الذي سيسدد خطى الإنسان ويرشده إلى سواء السبيل

وعديدون هم الذين يتشدقون ويفاخرون بمثاليات يجب التحلي بها، وبمبادئ يجب التقيد بها لكن كم من شخص يعمل حقا بما يقوله؟ وكم من شخص ينفذ ما يعتقد أو يؤمن به ويعمل بذلك كقاعدة دائمة وثابتة في حياته، وليس فقط بحسب التسهيلات.

عدد قليل جدا بلا شك إذ أن الممارسة الفعلية أو التطبيق العملي تستدعي قوى ذاتية، عمادها الصدق والإرادة والمثابرة، كما تستلزم العمل بإيمان وثقة بالنفس.. وقلما نجد هذه الصفات في بشرية العصر الحالي، هذه البشرية التي تتخبط في وحول مادة هيمنت على تفكيرها حتى باتت معبودها.. فآمنت به وسجدت له وكأنه إله أو وجود مقدس.. متناسين أنهم هم من أوجدوه من بنات أفكارهم وأهوائهم وعلى صورة تطلعاتهم ونزواتهم.

نعود إلى موضوع البحث: ما هو الضمير؟ فيطرح الايزوتيريك السؤال كعادته على ذوي اختصاصات وثقافات متنوعة تختلف باختلاف ميول ومبادئ كل منهم.. فجاءت الإجابات على النحو التالي:

الضمير حالة نفسية من الرضا والطمأنينة من السعادة والراحة والاكتفاء الذاتي.. حالة يشعرها المرء إثر القيام بعمل إيجابي، أو في حالة عدم اتخاذ منحى سلبي، أو عدم تنفيذ عمل خاطئ، تلك كانت إجابة العالم النفسي وقد صادفه الرأي الفيلسوف أيضا.

وقال رجل القانون:

الضمير هو الترفع عن كل عمل سلبي يؤثر سلبا في الآخرين.

أما رجل الدين فأجاب: الضمير هو عمل كل ما يسر الله وتنفيذ كل ما أمرنا به. فيما نخبة من المثقفين اتفقوا على الإجابة بأن: الضمير هو الراحة النفسية.. فما من شيء يقلقها أو يقض مضجعها!

وثمة إجابات أخرى عديدة لكنها جميعها دارت حول الفحوى نفسها.. وهو أن الضمير شعور بالسعادة ينجم عن عدم القيام بما يسيء إلى الآخرين، بل بما يفرحهم ويريحهم.

هذا هو الجوهر الذي اتفق عليه الجميع في النهاية.

لكن هل هذا هو مفهوم الضمير؟

يجيبنا الايزوتيريك بأن جميع الإجابات السابقة كانت تعريفا لمفعول الضمير في النفس.. لكنها ليست تفسيرا محددا لمفهوم الضمير نفسه.. لأن الضمير أبعد مدى من المدارك مهما ارتقت علما وثقافة، وأشمل من أن يحدد من خلال نتائجه أو مفعوله.. كل ذلك لسبب واحد وهو أن الضمير ليس صفة بشرية، بل ميزة إلهية في الإنسان، وهنا يظهر الفكر المحدود في البحث وأسلوب درس معطياته إذ أن الناس عادة يلقون نظرة مادية، أو يفكرون بذهن محدود في ميزة إلهية، فلا يبصرون عبر تلك النظرة إلا ما تستطيع العين رؤيته أو الذهن استيعابه، أما الأبعاد الأسمى والأشمل فتبقى بمنأى عن كل ما يعتقدون.

محبة الخالق هي التي رسمت هدف الخلق وحددت مصير الإنسان

إذا ما وضعنا غشاء سميكا على جوهرة مشعلة.. الذي نبصره منها؟ سنراها مغايرة للواقع، باهتة الألوان، معدومة البريق!

هذا هو واقع تفسير المفاهيم الإلهية بأفكار بشرية ولهذا السبب يبقى المرء بعيدا عن الحقيقة مهما حاول الاقتراب منها.

ومن جهة أخرى إذا ما تفكرنا في قول فيكتور هوغو: «لا قوة إلا قوة الضمير ولا مجد إلا مجد الذكاء» نجده رمزيا أكثر منه عمليا.

ترى ما حقيقة الضمير وماذا في جعبة الايزوتيريك عنها؟

يشرح الايزوتيريك بأن الضمير ميزة إلهية كامنة في الذات، تلك الذات التي لا يطالها الزيف المادي لأنها أقصى ما يمكن أن تكون عن عالم الجسد وعالم الشكل ككل.

والضمير هو في الواقع تجسيد ناموس العدل الإلهي في نفوس البشر.. هذا العدل الإلهي، أو القانون الروحي الأسمى، هو اجتماع محبة وحكمة الإله الخالق.. من هنا بات الضمير مزيجا من محبة وحكمة في عمل تطبيقي.

فالناموس الذي هو العدل، والذي يفرض الوعي مصيرا والتطور مسيرا يستحيل أن يحوي غير محبة سامية، شاملة مترفعة عن كل أنانية وإيثار للنفس.

فمحبة الخالق للإنسان هي التي أسبغت عليه قانون التطور.. لأنها لا ترضى للإنسان مصيرا غير الكمال في المعرفة والوعي والحكمة، محبة الخالق هي التي رسمت هدف الخلق، وحددت مصير الإنسان.. ألا وهو التطور ليصل عبره إلى مداه الإنساني، وحكمة الخالق من جهة أخرى خطت المسار الذي يجب أن ينتهجه الإنسان ليبلغ الهدف الأسمى.

ذلك أن الإنسان كان طفلا في الوعي منذ الخليقة الأولى.. ما يعني أنه كان عاجزا عن البحث عن مسار الوعي، أو حتى عن التفكير بالتطور بنفسه. من هذا المنطلق أرشده الخالق إلى المسار السليم المستقيم الذي سيوصله إلى الهدف المقدس.

اجتمعت محبة الخالق وحكمته في فعل.. فكان كل شيء.. كان المسار وكان الإنسان، كان الوجود وكان القانون الذي سيسدد خطى الإنسان ويرشده إلى سواء السبيل.. حتى يعيده إلى المسار المستقيم إن هو حاد عنه.. ويذكره بالهدف إن هو غفل عنه!

هذا هو الضمير الإلهي - فعل المحبة والحكمة! فالشعور الإلهي، بعد اقتران المحبة بالحكمة، أضحى الضمير الإلهي!

هو شعور زاخر بالثقة، بأن الإنسان سيصل في النهاية..

شعور طافح بالسعادة لأن الهدف سيتحقق..

شعور بالراحة، فالواجب قد تم على الوجه الأكمل، إنه الغبطة المستديمة!

هذا هو الضمير الإلهي، أو الشعور الرباني الهاجع في ذات الإنسان، مؤئل الخالق في المخلوق!

هذا الشعور الرباني من الغبطة المستديمة، تمتد من علياله وانعكس في النفس البشرية - مثلما انعكست سائر المكونات الإلهية في عالم الجسد والمادة - فجاء ضميراً بشرياً يختلف عن الأصل من حيث كثرة الأبعاد وسموها، وبعد الآفاق وشموليتها.. فالضمير البشري تصغير عن الضمير الإلهي، يستوعبه كل إنسان، أو يتوسع فيه، حسب مستوى وعيه.. فهو اجتماع محبة وحكمة في تطبيق عملي، لكنها محبة بشرية وحكمة بدائية في ممارسة حياتية.

بمعنى آخر، الضمير البشري هو القيام بما يستطيع المرء فعله في سبيل الخير العام، في الوقت المناسب، للشخص المناسب، أما إهمال أو عدم تنفيذ ذلك العمل، فلا يعد

إثماً أو خطيئة، بل أقله عدم الكترات قد يقض مضجع الإنسان، ويقلق ضميره!

مساعدة فقير بائس أو شخص محتاج هي في الواقع محاولة إراحة ضمير أكثر منها حباً بالعطاء.. خصوصاً إذا ما قدم المرء المساعدة إلى فقير اعترض سبيله، أو إلى محتاج طلب عونه.. أي أنه لم يسع بنفسه للبحث عن محتاج لمساعدة! أما إن هو لم يساعد ذلك البائس، فهذا لا يعني بالضرورة وجود صفة سلبية في النفس، بل قد يولد سبباً لإقلاق راحة الضمير لبعض الوقت.

عدم تأدية الواجبات والمسؤوليات كما يجب، يسبب إقلاقاً للضمير، فالضمير هو محاسبة النفس للنفس!

إذا ما أخطأ أحدهم في مجال المعاملة مع الآخر، وإذا ما كان الخطأ فادحاً، فإن القانون الإلهي هو الذي يعاقب المخطئ عاجلاً أم آجلاً. أما إذا كان خطأ بسيطاً، كإيذاء مشاعر، أو إساءة كلامية إلى الآخرين.. فالضمير هو الذي يعاقب على هذا الخطأ! هكذا تخبرنا أخلاقيات الايزوتيريك.

عادة، إن أخطأ الإنسان بحق نفسه، اقلق ضميره.

إن أخطأ بحق النظام أو القوانين العامة، أو الأعراف والمبادئ والتقاليد المتعارف عليها، يشعر بتأنيب الضمير..

وكأن الضمير هو الرقيب الذاتي الذي نصبه القانون الأسمى، قانون العدل الإلهي، ليقتص من الإنسان، أو ليوجه له تنبيهاً أولياً قبل أن ينفذ حكم «الكارما» أو قانون الثواب والعقاب بحقه!

على سبيل المثال، إذا أساء رب العمل معاملة موظف لديه، وشعر بعدها بتأنيب ضمير.. يكون الضمير في هذه الحالة وكأنه قد وجه إليه تنبيهاً أولياً بأن قانون العدل الإلهي سيقتص منه إن لم يبادر إلى تحسين مسلكه وتصحيح علاقته مع ذلك الموظف.. أما إن لم ينصت رب العمل إلى نداء ضميره، أو ازدادت الأمور سوءاً بينهما، فإن ذلك التنبيه الأولي يتحول إنذاراً، وتذكيراً متكرراً به.. كأنه يحثه على الإسراع إلى تغيير أسلوب أو نمط معاملته السلبية. وقد تتتالى الإنذارات التي هي بمثابة عوامل مجهولة تتسبب في تنغيص حياته أو أعماله. هذا وإذا بقيت الأمور على حالها السلبية، فإن الإنذار سيعقبها القصاص الحازم عقاباً على الأخطاء.. وقد يتخذ هذا العقاب شكل مرض فجائي.. وخسارة مالية غير متوقعة.. أو غيره حسبما يقرره قانون العدل الإلهي.. علماً بأن العقاب سيكون بمقدار الخطأ، حتى تتوازن كفتا ميزان الأعمال!

قد يظن البعض أن الضمير هو قسوة النفس على النفس! لهؤلاء يقول الايزوتيريك: «أجل، هو قسوة النفس العليا(الذات) على النفس الدنيا، لكن بمنتهى المحبة!»، فمحبة النفس العليا للقانون الإلهي هي التي تجعل الضمير يستيقظ، ويوجه اللوم والعتاب إلى النفس الدنيا، لتقيها التمادي في الخطأ، وتجنبها مواجهة القصاص كمصير حتمي!

الضمير هو المحبة - كل المحبة...

وهو الحكمة - كل الحكمة!

فإن عرف الإنسان كيف يريح ضميره، تحكم في نفسه ووضعها بسرعة على مسار مداها الإنساني.

أما كيف السبيل إلى توعية الضمير، أو وعي أحاسيسه.. فالطريقة يسيرة بقدر ما هي عسيرة.. ألا وهي: محاسبة النفس في ضوء تقويم الأعمال والنتائج بتجرد كلي!

فكلما كان الإنسان صادقاً مع نفسه، حيادياً متجرداً في محاسبة نفسه وتقويم أعماله، استيقظ فيه حس الضمير، مع العلم أن وعي الباطن سيساند الضمير في تلك الحالة، ويمده بالفهم اللازم لتسريع خطاه على مسار الوعي. إذ أن من شأن وعي الباطن تزويد الضمير بالرؤية البعيدة الشاملة، وبالقدرة على الحكم الصائب، وكشف ما تصعب معرفته عن طريق الحواس المادية والمشاعر البشرية. لأن من شأن هذه الأخيرة حجب الرؤية المجردة أو التغاضي عن الواقع وإخفائه!

إذاً.. الصدق مع النفس، تقويم الأمور بتجرد كلي، والترفع عن الأنانية وإيثار النفس.. جميعها عوامل تساعد على توعية الضمير.

وإذا ما أصم المرء أذنيه عن صوت الضمير، فسيعود الضمير إلى غفلته السابقة، إلى ظلمته المعهودة وصمته الدائم.. وستكون النتيجة غرق المرء في لجج من الأخطاء، تتقاذفه أمواج الزيف والخداع والأوهام، عدا الألم والعذاب!

أما إن أنصت المرء إلى صوت الضمير، وعمل بما يمليه عليه، تعزز وعيه به وتقوى، وبالتالي توعى فيه الضمير الإلهي.. أي شمولية الحكمة والمحبة!

وختاماً نذكر بقول قديم لحكيم جليل:

«الضمير هو لغة العقل، التي تعبر عن مفاهيم الروح»!

فهل يرضى العقل بغير المنطق والوعي؟!

وهل ترضى الروح بغير المحبة والحكمة؟!

وليتبارك كل من يسعى إلى دمج المحبة والحكمة في تطبيق عملي. تلكم هي ميزة الايزوتيريك.

كلما كان الإنسان صادقاً مع نفسه، حيادياً متجرداً في محاسبة نفسه وتقويم أعماله استيقظ فيه حس الضمير

إذا عرف الإنسان كيف يريح ضميره، تحكم في نفسه ووضعها بسرعة على مسار مداها الإنساني